النظريات المفسرة للحكم الجمالي

الدكتور معن جاسم الامين

تعددت النظريات والطروحات الفكرية التي فسرت طبيعة الاحكام الجمالية فهناك من يرى ان الحكم الجمالي ينصب على الجمال في الشيء ذاته فيكون موضوعياً. ويرى آخرون انه متعلق بإحساسنا وشعورنا إزاء الموضوع.

وقد أخذت الاحكام اتجاهين: فنحن حين نقول: (هذا العمل جيد) فهل نحن نتحدث عن العمل ذاته، ام اننا نصف استجابتنا الخاصة له فحسب؟.

ان شخصاً ما حين يصدر حكماً جمالياً على عمل فني فأنه يكون في احد وضعين: اما انه يحدثنا عن خصائص الشيء نفسه فيتبين فيها جمالاً او قبحاً بحسب مفهومات او قواعد عامة خارجية للجمال والقبح فهو عندئذ موضوعي، فهو يحدثنا عن موضوعية الجمال او القبح في الشيء الذي عرض له. واما ان يحدثنا عن احساسه الخاص إزاء هذا العمل، فيكون احساس الرضا حيناً والنفور حيناً. فهو عندئذ ذاتي (اسماعيل، ١٩٨٦- ص٦٥).

ويمكننا ان نجمل النظريات التي تناولت موضوعية الاحكام الجمالية ونسبيتها في كل من النظرية الموضوعية والنظرية الذاتية، والنظرية النسبية الموضوعية. وفيما يلي عرض موجز لاهم الافكار التي تستند اليها تلك النظريات.

١-النظرية الموضوعية.

قديماً قال (افلاطون) بجمال الأشياء مستقلة عن توافقها مع رغباتنا، وان الجمال الذي نخلعه على الأشياء بحسب موافقتها لنا ليس سوى جمال عارض، أي اننا لا نستطيع ان نسميه جمالاً وانما هو حالة شعورية خاصة فالجمال عند افلاطون جمال موضوعي.

وتتميز النظرية الموضوعية بأن حكم القيمة يتحدث عن العمل الفني وحده، فهو لا ينطوي على اشارة الى المشاهد، او على أي شيء آخر ما عدا العمل الفني، فهي ترى القيمة كامنة فيه (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٥٨٨).

ويمكن ايجاز الفكرة الرئيسية في النظرية الموضوعية كما يعرضها (س.أ. جود C. E. M. Jood) بالاتي"اذا كان الموضوع يملك صفة كونه جميلاً فلا يمكن ان يؤثر في جماله أي شيء يحدث في الذهن الذي يدركه". (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٥٨٩).

فالجمال في الأشياء لابد ان يكون صفة مستقلة عنا وعن ميولنا ورغباتنا ، فالأشياء الجميلة لابد ان تتوافر مبدئياً على الجمال.

وهناك ثلاث نظريات تنتمي الى النظرية الموضوعية وهي كما حددها ستولينتز:

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

أ-الحدسيون او النظرية الحدسية: وهم يرون ان "قيمة العمل شيء يُدرك مباشرة، ونحن لا نستدل عليه او نستنتجه، وعندما ندرك سمة القيمة لا يمكنا ان نشك بوجودها" (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٠٠) غير ان الاستناد الى الحدس يؤدي الى مشكلة، فعند الحكم على العمل الفني فان الحدوس عند الناس قد تتعارض. اذ ليس هناك منهج يمكن التحقق به من صدق حدس احدهم وخطأ حدس الآخر.

ب-نظرية السمات المصاحبة: واصحاب هذا الاتجاه يرجعون القيمة الى الخصائص الموضوعية للعمل الفني والتي يمكن للجميع التحقق منها وبذلك يتغلبون على الاحكام الخاصة والشخصية. ويرى اصحاب هذه النظرية ان القيمة ليست هي تركيب العمل الفني ولكن بغير وجوده لا توجد قيمة جمالية، والجمال يرجع الى الخصائص الموضوعية التي نجدها من خلال الخصائص الشكلية المميزة للعمل الفني، والتي تتحدد ضمن قواعد معينة مثل قواعد المنظور والنسب والانسجام. ولكن يحدث ان يخرج الفنان عن القواعد والنسب لا عن جهل بل متعمداً، وبذا فأن الحكم وفقاً للقواعد سيكون غير مجد. (مطر، ١٩٧٢- ص١٠٣-١٠٤).

ج-النظرية التعريفية: واصحاب هذه النظرية يقولون بأننا نستطيع ان نعرف الجمال حين نراه، وان بإمكاننا ان نحدد ما هو الجمال، فهو قابل لان يلاحظ بطريقة مشتركة. فالقيمة الجمالية يمكن تعريفها، وان الحكم (س جميل) يمكن اثبات صحته اذا كانت (س) تتصف بصفة الجمال. (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦١٠).

ان جميع النظريات الموضوعية تؤكد على ان للجمال صفة موضوعية، والموضوعية تعني ان بإمكاننا اثبات صحة احكامنا الجمالية او بطلانها. إلا اننا في حقيقة الأمر لا نتفق على احكام معينة وهناك فروقاً كبيرة في الاذواق، منها ما هو سليم ومنها ما هو رديء، فاذا كان للجمال صفة موضوعية فلم لا نتفق في احكامنا الجمالية؟.

النظرية الذاتية

يرى اصحاب النظرية الموضوعية ان للجمال صفة موضوعية، فالأشياء الجميلة تظل جميلة بغض النظر عن رؤيتنا او عدم رؤيتنا لجمالها. إلا ان هناك على الضد من ذلك، من يرى ان لا وجود للجمال بمعزل عمن يحسه او يتذوقه. ويرى (كانت): "ان الجمال منفصلاً عن شعورنا لا يعد شيئاً". (اسماعيل، ١٩٨٦- ص٦٩).

وعلى خلاف النظرية الموضوعية التي اكدت على العمل الفني، نجد النظرية الذاتية تؤكد على دور المشاهد او المتلقي في تقدير القيمة الجمالية للعمل الفني.

ففي نظر (دوكاس) ان الحكم يشير قبل كل شيء الى التجربة التي يمر بها المشاهد عندما يدرك العمل جمالياً، فهو يقول (هذا العمل جميل) عندما يشعر بالاستمتاع، ويصفه بأنه (قبيح) عندما لا يشعر بالاستمتاع. وهذه الفكرة هي محور النظرية الذاتية. فأننا عندما نقول ان موضوعاً معيناً له قيمة جمالية، فأننا نصف مشاعرنا ونحن لا نشير عندئذ الى سمات موضوعية. (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦١٨-٦١٩). واصحاب النظرية الذاتية لا يرون ان هناك سمات او

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

مواصفات موضوعية نستطيع ان نركن اليها وانما المعيار الوحيد هو ما نستمده من لذة، فإما ان نشعر بلذة وسرور اولا، وحكمنا على الموضوع الجميل ليس إلا حكماً على مشاعرنا الخاصة، واذا صح ذلك فلا يجوز ان نختلف في احكامنا اذ ليس هناك حكم أصح من الآخر، (مطر، ١٩٧٢- ص١٠٤) فالأحكام"تتصل بالعلاقة بين الموضوع المحكوم عليه وبين تجربة الاستمتاع الخاصة لدى الفرد، وهي التجربة التي لا يمكن ان يلاحظها او يحكم عليها أي شخص سواه". (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦١٩).

وهنا لا يعود الاختلاف بين القيم يثير أي اشكال، فمن الطبيعي ان يكون الناس مختلفين. فحين يشعر شخص ما باللذة في ادراك العمل (س) فأن الآخر قد لا يشعر بها، وهنا نحن لسنا مضطرين الى ان نقرر ايهما (الصحيح)؟ فالجمال ليس سمة موضوعية وانما هو يتفاوت تبعاً للمشاهد، فيصبح التقدير بأسره متعلقاً بما يحبه المرء او لا يحبه، واذا كان هناك اتفاقاً بين احكام البعض فهذا معناه ان البعض يتفقون في انهم يجدون لذة في بعض الأشياء، إلا ان هذه الاحكام لا تكون ملزمة للآخرين. فأن لكل واحد ذوقه الخاص.

وتتعرض النظرية الذاتية للنقد كونها لاتجد مقياساً للحكم الجمالي فكل الاحكام هي صحيحة. وهذا يعني ان لا وجود لعمل جيد وعمل رديء إلا من وجهة نظر كل فرد. فقد احكم على عمل بأنه جميل لأنه اثار في نفسي شعوراً معيناً ولكن هذا الحكم لا يكون جمالياً بالمعنى الدقيق، فهو قد لا ينصب على العمل الفني ذاته وقد ينصب على شيء آخر غير مرتبط بالسمات الموضوعية للعمل، وقد يختلف حكمي حول أحد الاعمال بحسب حالتي المزاجية فيكون حكمي مرتبطاً بمشاعري أكثر من ارتباطه بالعمل الفني، فتارة يعجبني فأقول عنه انه (عمل جيد)، وفي المرة الثانية لا اراه كذلك على الرغم من ان العمل نفسه لم يتغير.

النسبية الموضوعية.

لاقت كل من النظريتين الموضوعية والذاتية اعتراضات لكون النظرية الموضوعية تؤكد على العمل الفني دون الاعتماد على دور المشاهد في الحكم، اما النظرية الذاتية فقد اكدت دور المشاهد في الحكم واغفلت اهمية السمات الموضوعية في العمل الفني فتكون الاحكام نسبية وذاتية.

وتحاول النظرية النسبية الموضوعية (Objective relativism) التأكيد على اهمية كل من العمل الفني والمشاهد في الحكم الجمالي فيرى اصحاب هذه النظرية بأن الحكم يشير الى الموضوع، إلا انه ليس له قيمة مطلقة، أي ان الاحكام أيضاً مرتبطة بالتجربة البشرية. فالأحكام تتضمن العوامل الموضوعية والذاتية معاً. (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٣٥). فهم يقولون بما يقول به الموضوعيون من ان الحكم الجمالي لا يقع على احساس الفرد بل على الموضوع، ولكنهم لا يقولون بالموضوعية المطلقة بل ينسبون الموضوع الى الانسان. فالقيمة ليست قيمة مطلقة ولا هي شعور ذاتي انها خاصة بالموضوعات ذات القيمة وهي (امكانية) او قدرة خاصة يمكنها ان تثير في المتذوق خبرة جمالية او تأثيراً او شعوراً. (مطر، ١٩٧٢- ص١٠٥).

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

ويرى (ريمون بايير) ان الذات او نسبية الحكم ليست هي كل شيء في الحكم. وانما هناك شيء يظل خارجاً عن الذات، إلا وهو ما في الموضوع نفسه من توازن في صميم بنائه الجمالي، وهذا الشيء بالذات هو العامل الفيصل الذي يظل الحكم الجمالي مشروطاً به دائماً وابداً. (ابراهيم، ١٩٥٩- ص٢٣٠).

ويقول (اليزيوفيفاسEliseoVivas)، ان الجمال طابع بعض الأشياء و (حاضر) فيها، على انه حاضر فقط في الشيء من اجل أولئك الذين زودوا بالقدرة والمران اللذين من خلالهما وحدهما يمكن ادراكه. (وارين، وويليك، ١٩٧٢- ص٣٣٠).

ومن خلال هذه الآراء يمكن ان نرى ان للجمال سمة موضوعية إلا انها لا تكون حاضرة في كل الأشياء بل في البعض منها، وليس بالامكان تمييز هذا الجمال من قبل الجميع. بل ان هناك من لديهم (امكانية) التمييز أكثر من غيرهم. وهذه الامكانية او القدرة تتوقف كما يقول (هيل Bernard Heyl) على "ثقافة المرء وبيئته، وعلى مزاجه وتجربته" (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٤). وهذا يعني ان الناس لن يتفقوا على القيمة الجمالية ما لم يكونوا متشابهين في الثقافة والطبع والبيئة والعصر.

ونعود الى السؤال: هل هناك حكم جمالي أفضل من غيره؟ وهل هناك ذوق سليم وذوق رديء؟.

يرى (هيل) اننا لا يمكن ان نضع جميع الاحكام على قدم المساواة عندما نقدر عملاً فنياً، اذ ان بعض الناس ليسوا مؤهلين للحكم، اما لجهلهم، واما لقلة درايتهم بالعمل الفني وافتقارهم الى التمييز اللازم لإدراك دقائقه. (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٥٧).

فالأحكام ليست متساوية في صحتها (على الخلاف من النظرية الذاتية) وان مجرد الميل او عدم الميل غير كاف للتقدير، بل لابد ان يضاف الى ذلك تحليل متعمق للعمل الفني. وهناك افراد معينون تتوفر فيهم صفات لازمة لادراك العمل الفني هم الذين يمكنهم ان يصدروا احكاماً موثوقاً منها (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٣٥).

وأخيراً من خلال النظر الى الافكار الموجزة لكل من النظريات الموضوعية والذاتية والنسبية الموضوعية نرى ان النظرية الموضوعية اهتمت بالعمل الفني وأعطت اهمية للقواعد والقوانين للوصول الى حكم موضوعي. إلا انها ركزت على الشكل دون المضمون الذي بطبيعة الحال له تأثير في تحديد القيمة الجمالية لدى المشاهد. وعلى الخلاف من ذلك فأن النظرية الذاتية عكست الأمر. فليس هناك عمل (جميل) وعمل (قبيح)، بل ان العمل هو (جميل بالنسبة لي) او (قبيح بالنسبة لي) أي انها ركزت على دور المشاهد في الحكم واهملت السمات الموضوعية للعمل الفني، وهي بذلك تقر بأن ليس هناك حكماً افضل من غيره فالأحكام متساوية.

اما النظرية النسبية الموضوعية فقد حاولت الخروج من المطبات التي وقعت فيها كل من النظريتين السابقتين وقد انتفعت من النتائج الايجابية التي توصلتا اليها. فترى النظرية النسبية الموضوعية "ان القيمة الجمالية هي سمة (علائقية)، فلا يمكن وصف الشيء بأن له قيمة إلا نظراً الى اتصاله بالمشاهد" (ستولينتز، ١٩٧٤- ص٦٤٠) ومن اهم ميزات هذه النظرية انها لا تقر بوجود

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.

معيار واحد هو وحده المشروع، وبالتالي لن يكون هناك حكماً واحداً هو وحده الصحيح. بل ان الاحكام تختلف باختلاف الحضارة والبيئة والعصر. وغالباً ما تكون هناك احكاماً تمثل رأي الاغلبية وتكون المعايير الجمالية الشائعة والسائدة لتلك الحضارة او البيئة او العصر. ويمكن اعتبار الذوق السليم هو ما يتفق مع رأي الاغلبية او هو الذوق السائد وبطبيعة الحال لا يتفق الجميع مع هذا الراي فالفنان غالبا ما يحاول تجاوز الآراء السائدة والبحث عن التميز والتفرد والخصوصية وتبقى هذه النظريات في مجال الجدل وهي تساعدنا في فهم اسباب احكامنا الجمالية .

AcroPDF - A Quality PDF Writer and PDF Converter to create PDF. To remove the line, buy a license.